(١٢)

العرب فى بحار الهموم والأخطار*

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لن تشاء ونـار لـو نفخـت بـها
أضاءت ولكن أنت تنفخ فى رماد..

«قيس بن زهير»

فى هذه التقاسيم أنا أحرص على أن يقتصر كلامى على بلدى مصر، وهى وطنى الصغير واجتهد فى ألا يتطرق بـى الحديث إلى وطنـى العربـى الكبير وهمومه وأحزانـه لأننـى لا آمـن رد الفعـل، وأهـل بلـدى يعرفـون إخلاصى واجتهادى فى النصيحة، وهم لهذا يتقبلـون منـى الكثير مما لا يرضيهم، وهم يلتمسون لى العذر فيما يبدو لهم أننى تجاوزت حـدى فيـه، لأننا نعيش فى هذا البلد فى عصر تستطيع أن تسميه عصـر الـرأى والـرأى الآخر، وهو عصر جميل حقيقة بالنسبة لصاحب القلم الذى يعتقد أن قـول الحق واجبه ووظيفته، ومادام فى الأمة من يسمع الحق ففيها من يقوله..

ولكنى تطرقت – على رغمى – فـى مقـال «نحـن وكتـاب الحيـاة» إلى موضوع حرب الخليج، لأنها فى الحقيقة حرب شاملة ستغرقنا جميعـا إذا لم نتداركها، وإذا كان إخواننا فى الخليج يصلون لهيبها، فإننى أذكر لهم أننى – وأنا هنا فى مصر – أعانى من نفس اللهب، وبنفـس الصنـف، لأن الخليج وطنى، والعراق وطنى، ولا يمكن أن أرى النار فـى بعـض جوانـب دارى ثم أظل مضطجعا فى فراشى كأن الأمـر لا يعنينـى. هنـا فعـلا أكـون مقصرا فى حق وطنى العربى.

المهم أن الرأى الذى طرحته لم يلق القبول من جانب غالبيـة مـن كتـب إلى من أصدقائى وأعزائى فى العراق، فقـد تلقيـت منـهم تسعة خطابـات،

---

* نشرت هذه المقالة فى ٧ أكتوبر ١٩٨٤م.

ثمانية منها ترفض رأيى، ولابد أن أقرر أنهم كانوا مهذبين جدا فيما كتبوا إلى، وهذه روح جميلة فى الحوار، وأنا كما قلت مرارا - خادم قرائى بالرأى والمشورة وما يتيسر من العلم القليل، ومادام الرأى لم يعجب الغالبية فأنا أرجوهم أن يعتبروه رأيا آخر صدر عن قلب يحب العراق حبا صادقا ولا يحمل لقادته إلا الإجلال، وأنا أعرف أن العراق من أكبر آمال العرب فى مستقبل أفضل، وهو أسبق العرب فى الكثير من ميادين النهوض، فهو السابق إلى إنشاء المفاعلات النووية العربية، وهو سابق كذلك فى الكثير من التنظيمات الجامعية والزراعية والعمرانية، وأنا أتمنى أن يستمر ذلك كله، وأسأل الله سبحانه أن يعود إليه أمانه ورخاؤه ليواصل مسيرته الموفقة إن شاء الله، وقد عتب على الأخ الكريم طارق عزيز فى شىء يسير، وأحب أن أؤكد له أننى لم أرد شيئا من وراء ما قلت، ولكن عادتى فيما أكتب هو أن أكتب الأسماء كاملة ما تيسر لى، وهذه قاعدة أسير عليها، ففى مقالى عما حققته أو ما لم تحققه مصر، بتعبير أصدق - فى دورة الأوليمبياد - ذكرت رئيس اللجنة الأوليمبية باسمه الكامل خوان أنطونيو ساماراتش، وذكرت المدير التنفيذى الأمريكى للدورة باسمه الكامل أيضا بيتر أوبرروت، وبهذه المناسبة أقول إن هذا الرجل تمكن بحسن النظام ودقته من أن يحقق - بعد كل النفقات الباهظة - ربما قدرها ١٥٠ مليون دولارا والولايات المتحدة حصلت من هذا المبلغ على ٧٥ مليون دولار مع أنها لم تنفق إلا ٢٠ مليونا، وأما النصف الثانى من الربح وقدره ٧٥ مليونا فاللجنة الأوليمبية العالمية الحق فى نسبة ضئيلة منه، والباقى سيوزع معاونات رياضية للبلاد الفقيرة لكى تستعد لدورة سيول، ولو كنا نحن الذين نظمنا هذه الدورة لانفقنا ٢٠٠ مليون كلها خسارة، وسوء الإدارة وسوء التقدير والتدبير وسوء الحساب تقاليد قومية عندنا لا يمكن أن نفرط فيها أبدا وإلا لم نكن عربا ولا مصريين، نفرغ إذن من رأيى بشأن حرب الخليج ونعتبره رأيا آخر طرح على بساط البحث، ولم يعجب أصحاب القضية المباشرين فنطرحه من النافذة، وننفض أيدينا منه ونغسلها، ويا دار ما دخلك شر..!..

□□□

ولكننى لم أكد أفعل ذلك حتى وقع فى يدى العدد الأخير من مجلة الايكونوميست الإنجليزية، وهى من أرصن المجلات العالمية ومعظم محرريها من العارفين فعلا بشئون السياسة العالمية، ولهذا فلا يمكن أن يفوتنى منها عدد، فأقرأ فيه أن الكولونيل منجستو مريام حاكم الحبشة احتفل فى يوم الاثنين ٣ سبتمبر ١٩٨٤م بعيد الثورة الحبشية وطرد الامبراطور هيلاسلاسى وإعلان الجمهورية فى بلاده وأعلن فى الاحتفال أن الحبشة أصبحت جمهورية ديمقراطية شعبية شيوعية مثلها فى ذلك مثل المجر وتشيكوسلوفاكيا وكوبا وموكب الاحتفال سار أمام المنصة التى جلس إليها الرفيق منجستو وإلى جواره نائب وزير الحربية السوفيتى واثنان من كبار رجال البوليت بورو أى المكتب السياسى الروسى، وأحد منهما يمثل إدارة المخابرات الروسية (الكى - جى - بى) وفى العرض سارت قوات جمهورية الحبشة الشعبية الديمقراطية مسلحة بأحدث الأسلحة الروسية من الدبابات والمدافع والمصفحات وقاذفات لصواريخ، وفى الجو حلقت أسراب طائرات ميج ٢٣، وفى موكب الرئيس الشيوعى الجديد الرفيق منجستو مريام تمر عربة صنعت فى موسكو دون شك لأن عليها تمثالا من البلاستيك الأبيض يشبه الرخام يمثل الرفيق واقفا يخطب وأمامه خمسة ميكروفونات، الهيئة تذكرنى بصورة فلاديمير أوليانوف لينين وهو يخطب فى الميدان الأحمر ضحى يوم ثورة أكتوبر ١٩١٧م دون ميكروفونات، وأسأل هل بعث لينين مرة أخرى وجاء إلى قلب أفريقية ليحفر بئرا تحت أقدام مصر والسودان؟..

وأفتح الاطلس لاسمع ما تقول الجيوبوليتكا: هذه هى الحبشة، وهذا هو سودانا النيلى، وهذه هى تشاد، وتلك هى ليبيا، الجماهيرية الشعبية الاشتراكية العربية أقصد، وهذا هو الصومال، وتلك هى جيبوتى، ثم اريتريا الشهيدة وهنا على الضفة الأخرى لخليج عدن مدخل البحر الأحمر أرى جمهورية اشتراكية ديمقراطية أخرى، وهذه هى عدن عاصمتها، هنا يقوم رفيق موسكو فى آخر، وهذا هو مضيق باب المندب،

وهذا هو البحر الأحمر بحرنا العربى، وهنا كانت الألغام التى ارتطمت بها السفن الآتية من قناة السويس أو الذاهبة إليها يالغرابة ما تبين لى! إنها داثرة! إنها شرك مخيف يدور حولنا، حول وادى النيل، ويهدد الجناح الغربى للسعودية، هل معقول أن هذا كله يتم دون علم الولايات المتحدة الأمريكية، وماذا تفعل الأقمار الصناعية وطائرات الأواكس وترسانة التدمير الأمريكية؟ وماذا تفعل السى أى إيه التى تحس دبيب النملة على الأرض؟ أيكون من المعقول أن السى – أى – إيه تعمل بالاشتراك والتعاون

مع الكى جى – بى؟..

وأنظر فى الخريطة مرة أخرى وأرى نفسى تقول: ولم لا؟ فهذه هى بربرة كبرى موانى الصومال، وفيها قاعدة أمريكية رهيبة هل يمكن أن يكون هذا الشرك كله قد أحكم وضعه دون أن تعلم الولايات المتحدة؟ هل من المعقول ألا تكون لهذه كله علاقة بما يسمى بثورة الجنوب السودانى؟ وهل له علاقة بما تعانيه تشاد مما يسمى بحرب أهلية بين الشمال والجنوب وما تأتيه ليبيا من العربدة فى هذا البلد المسكين؟ وماذا تفعل فرنسا هناك؟ لماذا تضع هنا فى نجامينا ثلاثة آلاف جندى فرنسى من أحسن عناصر جيشها من ذوى البيريهات الحمراء، وراتب الواحد من هؤلاء لا يقل عن ألف ومائتى دولار فى الشهر غير الطعام والإسكان والتأمينات على الصحة والسلامة والحياة، وهذه كلها نفقة كبيرة جدا فمن الذى يدفعها؟ فرنسا؟ ذلك بعيد وما يدفع هذه النفقات إلا أمريكا عن طريق حلف الأطلسى، وكذلك كل ما ينفق على ما يسمى بالمتمردين فى جنوب السودان تتحمله الولايات المتحدة عن طريق مجلس الكنائس العالمى حينا والفاتيكان حينا آخر، وإلا فمن أين لهؤلاء الناس السلاح المستمر والعتاد والأموال؟ وكم يكونون يا ترى؟ تستمع إلى صوت أمريكا مرة فتراه يقول إنهم كذا مليونا! أى تضليل هذا والله؟ الذى أعرفه أنهم لا يزيدون على أربعة آلاف إن كثروا، إذن فما هذه الكنائس والمنشآت والدعاية الواسعة؟

هؤلاء يا سيدى ناس مساكين فقراء يعضهم الجوع فيقال لهم: اذهبوا إلى الكنيسة لتحصلوا على الطعام واللبن لأولادكم، ويذهب الرجال والنساء ويجلسون فى الكنيسة فى انتظار الطعام ويدخل القس يتكلم وتؤخذ الصورة ويقولون لك: انظر إلى الكنائس التى تفيض بالناس والناس المساكين أخذوا من الطعام واللبن للأطفال وعادوا إلى اكواخهم دون أن يعلموا أنهم استعملوا أداة دعاية دينية سياسية! ومن أعجب ما سمعت من إذاعة البى - بى - سى مرة أن سكان جنوب أفريقية من السود لا يزيدون على ثلاثة ملايين وأن البيض اثنى عشر مليونا فانظر كيف يستغفلون الناس؟..

وما هى حكاية الحبشة أو أثيوبيا هذه؟. أمامى فى أطلس جارزانتى التاريخى - وهو مطبوع فى كل لغة أوربية ومستعمل على نطاق واسع، وفى ص ٤٧٦ من الطبعة الإيطالية الخامسة أجد خريطة لشرق أفريقية عند غزو إيطاليا للحبشة أيام موسولينى سنتى ١٩٣٥م و١٩٣٦م فأجد الحبشة امبراطورية صغيرة فى مناطق الجبال حول أديس أبابا ولا طريق لها إلى البحر إلا خط حديدى يمر بمستعمرة جيبوتى الفرنسية إذ ذاك، وأجد على الخريطة بلدا كبيرا واسعا يسمى اريتريا عند شرق السودان الجنوبى والأوسط حتى قرب مستوى محافظة كسلا وأجد الصومال مقسوما إلى صوماليين: إنجليزى على الساحل ومستقل فى الداخل، واقليم الأوجادين داخل فى الصومال المستقل، وموسولينى غزا الحبشة وأريتريا، وهذا الصومال الإنجليزى، وبعد هزيمة إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية وإعادة تخطيط أفريقية على يد المنتصرين نجد أنهم أضافوا أريتريا إلى الحبشة، وكذلك الصومال المستقل وفيه إقليما أوجادين، ويتجرى فى الجنوب والشرق وهرر ومصوع فى الشمال الشرقى والحبشة التى لم تكن مساحتها تزيد على مساحة مديرية خط الاستواء أو أكواتوريا السودانية المصرية أصبحت شيئا ضخما تبلغ مساحته ثلثى مساحة السودان وتقترب جدا من بحيرة تانا وهى منبع النيل الأزرق والحبشة التى هى من أفقر بلاد العالم

الثالث وأكثرهم تأخرا أصبحت «تستعمر» بلدا أفريقيا مجاورا له هو أريتريا ونصف مساحة الصومال فمن الذى فعل ذلك؟ الحبشة الفقيرة المعدمة التى لا تقل نسبة الأمية فيها عن ٩٧٪ أرباع من تحكمهم مسلمون؟.

هنا أرجع إلى عدد مجلة تايم بتاريخ ١٦ يناير ١٩٨٤ فأجد دراسة موسعة عن أفريقية اليوم، وصفحة الغلاف نفسها تحمل عنوان: الأم إفريقية: انقلابات وصراع وفساد والموضوع الرئيسى عن أفريقية فى المجلة يغطى ثمانى صفحات وعنوان المقال (موضوع الغلاف) قارة تسير فى الطريق الخاطئ وتقرأ المقال فتعرف أن أفريقية المسكينة هذه هى من صنع الاستعمار، وكل حدود بلادها رسمها الاستعمار بحسب مصالحه، ولهذا فكلها قلقة متعبة مفلسة متعادية، وفى المقال صور سبعة من رؤساء أفريقية جنوبى خط الاستواء: الميجر جنرال محمد بخارى رئيس نيجريا، وآراب موى (ابن العربى) رئيس كينيا، وورولنج رئيس ليبريا، يوليوس نيريرى رئيس تنزانيا، (تنجانيقا زنبمبار)، وكينيث كاوندا رئيس زامبيا، وجوزيف موبوتو رئيس زائير، وموجابى رئيس زمبابوى (روديسيا سابقا، ولا تفصيل للانقلاب الدموى الذى أودى برئيس نيجيريا الشيخ الشجرى شيخوشاجارى وأتى برئيس آخر هو الميجر جنرال محمد بخارى كلها جنوبى خط الصحراء، عرفت ٧٠ رئيسا فى ٢٥ سنة أى بمعدل ثلاثة انقلابات فى السنة، وواحد منهم وهو كينيث كاوندا انتخب من شهور رئيسا للمرة الرابعة ليتم عشرين سنة فى الحكم، والقارى كلها جنوبى خط الصحراء مفلسة ومجموعة ديونها تزيد بمقدار ١٠٠ مليون دولار فى السنة، وسكانها قفزوا فيما بين ١٩٦٠م و١٩٨٢م من ٢١٠ ملايين إلى ٣٩٣ مليونا منهم على الأقل مائة مليون يتضورون جوعا، والغذاء الذى تنتجه ثلاثة أرباع أفريقية لا يكفى إلا لستين مليونا، وهناك ١٠٠ مليون يعيشون على الكفاف، وأربعة ملايين فحسب من هذا الجزء من العالم يحصلون على

طعام كاف، منهم ثلاثة ملايين من البيض فى جنوبى أفريقية والحبشة التى كانت فى يوم من الأيام امبراطورية صغيرة جدا أصبحت اليوم جمهورية ديمقراطية شعبية كبيرة جدا، ودخلها القومى السنوى لا يزيد على ٤٠٠ مليون دولارا، ولكنها تملك جيشا مدربا تدريبا روسيا لا تقل نفقاته عن ٨٠٠ مليون دولار فى السنة، ولها جيش احتلال فى اريتريا عدة رجاله ٤٢ ألف مقاتل، معهم حوالى ٦٠٠٠ دبابة، وروسيا تبنى للحبشة على النيل الأزرق خزانا وسدا يتكلفان حوالى ١٠٠٠ مليون دولار، لا لخدمة الاحباش، بل لتهديد مصر والسودان بقطع الماء عنهما وقت اللزوم.

والآن فقط وقد فوجئ بأن الحبشة أصبحت جمهورية ديمقراطية شعبية أى شيوعية تدور فى فلك روسيا يتنبه أهل الغرب وتبدأ تعرف الحقائق لأن أفريقية تحت الحزام الصحراوى فيها اليوم ثلاث جمهوريات شيوعية، يعمل فيها مدربون روس وكوبيون: هى الحبشة وأنجولا وموزمبيق، هذا بالإضافة إلى ليبيا التى لا يعرف أحد سرها، ولكن المؤكد الآن أنها مفلسة رغم البترول، وكل ما تتصرف فيه من الأموال ديون، والمواطن الليبى الذى لم يكن يدرى ماذا يخبئ له القدر عندما قامت ثورة أول سبتمبر ١٩٦٩، التى أطاحت بالملك إدريس السنوسى صاحب الفضل الأكبر فى بناء ليبيا بحدودها الحالية هذا المواطن يعانى اليوم من الحرمان ما لم يكن يخطر له على بال، والحكومة أممت حتى دكاكين الحلاقين والخياطين ومحلات الفول والطعمية، وتعتبر هذه كلها خطوات نحو إنشاء الوطن العربى الواحد الحر.

□□□

وكل هذه التعاسة وكل ذلك الجنون من صنع الغرب يملك الآن فعليا كل مصادر الثروة فى القارة، ونيجيريا التى كانت تنتج فى العام أكثر من مليونى برميل من النفط أصبحت لا تنتج نصف هذه الكمية، وكل معادن إقليم كاتانجا فى زائير لا تعطى البلاد أكثر من ٢٠٠ مليون دولار مع أن

نحاس كاتنجا وحده يساوى هذا المبلغ كل سنة، ومتوسط الدخل السنوى للفرد فى كل هذا الجزء من إفريقية لا يزيد على ١٠٠ دولار فى السنة، والثروة الحيوانية هبطت فى كل إفريقية جنوب الصحراء بنسبة ستين فى المائة وبلاد الساحل الأفريقى (تشاد ومالى وشمال نيجريا وفولتا العليا والنيجر وإفريقية الوسطى وموريتانيا) تعانى مجاعة دائمة، والحبشة نفسها يعانى كل شمالها وجنوبها من الجفاف ونفوق المواشى وموت الأطفال بنسبة ١٨٪ كل سنة، ومع ذلك فهى دولة استعمارية تحتل أراضى بلدين إفريقيين، وتهدد أمن السودان ومصر أو سكانها أنفسهم يموتون من الجوع ومع ذلك فهى تزعم أنها تقدم الطعام والمأوى لمئات الألوف من اللاجئين السودانيين، وقد حسب مركز الدراسات الاستراتيجية فى لندن النفقة العسكرية المسلحة الأثيونية بناء على ما ظهر فى العرض العسكرى الذى أشرت إليه فكانت ٢٠٠٠ مليون دولار مع أن الدخل القومى لدولة الحبشة كلها لا يصل إلى ألف مليون، والولايات الأمريكية تقدم للحبشة ٨٠٠ مليون دولار معاونة سنوية نصفها مواد غذائية وأدوية وطبيبات وأدوات زراعية ومعاونات فى مشروعات عمرانية، أما نفقات الجيش كلها فمن روسيا، ومعنى ذلك أن الدولتين العظميين تشتركان معا فى إقامة ذلك الكيان الحبشى غير الطبيعى أو المنطقى، ولكنه خطر على جيرانه جميعا وتهديد لأمنهم.

وهذا التهديد هو المطلوب، وروسيا وبلاد السوق الأوربية المشتركة وحلف الأطلسى والولايات المتحدة كلها مشتركة فى بناء صرح التهديد والجوع والخوف والقلق فى كل إفريقية: شمالها وشرقها وغربها وجنوبها، لأن البلاد الأفريقية مادامت كلها ضعيفة فقيرة مهددة متعادية بعضها مع بعض، فإن كل مواردها تظل تحت رحمة دول العالمين الأول والثانى، ويكفى أن تعرف أن كل مصادر الثروة فى إفريقية جنوب الصحراء ملك أو احتكار لشركات غريبة، والفلاح فى ساحل العاج مثلا لا يتقاضى عن طن

الكاكاو أكثر من ٨٠ دولارا، ولكن المائة جرام من الشيكولاته أو الكاكاو المطحون المعبأة فى فرنسا أو فى مصانع فرنسية فى ساحل العاج يباع فى ساحل العاج نفسه بدولارين، والطن ١٠٠٠ كيلو جرام أو ٢٢٠٤ رطلا، فاحسبها أنت بالورقة والقلم لتأخذ فكرة عن مدى الاستغلال بل الاستنزاف وما يعنيه ذلك من الاستعباد والإهدار لثروات هذه الشعوب وقيمها الإنسانية، والغرب كله - وروسيا بصفة خاصة - تكذب عندما تقول إنها تأسى لأحوال إفريقية وتسعى لمعاونتها لأنها هى وبلاد الغرب صانعة الفقر والمآسى، وهذه حقيقة يعرفها كل الناس، وقد أعلنت هذه الحقيقة بكل صراحة فى مؤتمر كاكونا الذى عقد فى المكسيك سنة ١٩٨١، للحوار بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وأسأل الدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية النابه النشيط الذى حضر كل المؤتمرات الإفريقية والإفريقية الغربية لتسمع منه الأعاجيب.

والذى يهمنا نحن العرب هنا أن كل التركيبة التى وضعتها فى شرق إفريقية يراد بها فى المكان الأول تحطيم مصر والسودان وإضعافهما وشغلهما وتهديد أمنهما والسيطرة على البحر الأحمر وقناة السويس وصاحبنا الليبى يشترك فى هذه المؤامرة، وهو لا يدرى أنها مؤامرة على ليبيا أيضا، فليبيا فى الميدان الدولى ليست إلا البترول الذى يستخرج من حقول نفطها والبترول ضاع معظمه والباقى مرتهن، وبترول الجزائر وغازها مرتهن كله والمملكة المغربية تعيش تحت خط الإفلاس، ولا تظن أنها كسبت من اتحادها مع ليبيا شيئا، وعندنا مثل عامى يقول: ماذا تأخذ الريح من البلاط.

□□□

وننتقل إلى قلب العالم العربى فنجد إسرائيل، وإسرائيل لم تنشأ أبدًا لتكون دولة بمعنى الكلمة، لأن أبسط مقومات الدولة وهى الحدود السياسية ليست موجودة بالنسبة لها، وعندما تقرأ كتابا ذكيا مثل (إسرائيل: أزمة

بحث عن الذات) الذى كتبه دان سيجرى اليهودى تخرج بحقيقة واضحة وهى أن الهدف الأساسى من وراء هذه الدولة هو إقلاق أمن كل بلاد الشرق الأوسط والدنيا كلها إذا أمكن، لأن اليهود عندما خربوا بأيديهم دويلتهم الصغيرة فى جزء من أرض فلسطين نتيجة لحروبهم الأهلية والطائفية التى لا تنتهى وأزعجوا امن كل الدول المحيطة بهم مثل مصر وبابل وآشور والرومان، واضطر هؤلاء الأخيرون إلى القضاء على دولتهم نهائيا سنة ٧٠ قبل الميلاد فتفرقوا فى بلاد الأرض واعتبروا أنفسهم أقلية مضطهدة مظلومة فى كل بلد نزلوا فيه، وعقدة الاضطهاد جعلتهم قوة تخريب، قبل التغير الحاسم الذىدخل على النفسية اليهودية بسبب النجاح الكبير الذى وجدوه فى الولايات المتحدة وبعض بلاد أمريكا اللاتينية مثل الأرجنتين والبرازيل كان اليهود مصدر متاعب لكل دولة أقاموا فيها، وكان الأندلس الإسلامى فى يوم من الأيام ملجأهم ومأمنهم الأكبر، لكنهم انقلبوا على الإسلام فى شبة الجزيرة الإيبيرية عندما انتقلت القوة فيها إلى النصرانية، وإسبانيا التى عاملتهم بشىء من الرفق فى عصرها الذهبى أيام امبراطورية شرلكان فيليب الثانى ضاقت بمتاعبهم واضطهدتهم ثم طردتهم ويهود إسبانيا السفديين – نسبة إلى سفاراد ومعناه بلاد الغرب أو إيبريا – تفرقوا فى أوروبا وانضموا إلى بقايا اليهود المتبقين فى أوروبا من أيام الرومان، وهم الإشكنازيين واستقرت جماعات ضخمة منهم فى روسيا وبولندا، وقد اضطهدتهم كل شعوب أوروبا – وخاصة روسيا – بسبب روح العداء نحو بقية البشر المتأصل فى نفوسهم وإذا كنا نلوم هتلر على ما فعل باليهود، فيتبقى أن تذكر أيضًا ماذا فعل اليهود بالألمان قبل هتلر، ولكنهم نجحوا نجاحا ماليا واجتماعيا عظيما فى الولايات المتحدة، واجتهدوا فى أن يكونوا أمريكيين، ولكنهم لم يوفقوا فى ذلك كثيرا، ورغم مراكزهم الكبيرة وأموالهم الطائلة فهم يعيشون هناك فى قلق نفسى هو فى حقيقته جزء أصيل فى تركيب النفسية اليهودية، وفى بعض سطور دان سيجرى تفهم أن اليهودى معيبة لنفسه ومصيبتان للآخرين.

وهذه المصائب الثلاث حطت فى النهاية على أكتافنا نحن العرب، والوطن القومى الذى فكر فيه تيودور هيرتسل تحول فى النهاية إلى معسكر اعتقال لكل الإسرائيليين الذين يعيشون فى إسرائيل وسجن انفرادى فى زنزانة لكل عربى يعيش معهم أو إلى جوارهم، ومصدر هموم ومتاعب وأعباء مالية أبدية لبقية يهود الدنيا، وكل ما كانت إسرائيل تسميه نجاحات مثل الكيبوتز والمستوطنات بل الدولة نفسها والكنيست أصبحت اليوم جروحا تنزف الدماء وتستنزف أموال الدولة اليهودية وحاميتها الولايات المتحدة، ويكذب كل من يقول إن الولايات المتحدة تؤمن بإسرائيل أو تعتقد أنها مصدر قوة لها، لأن كل يهودى فى أمريكا مشكلة لنفسه ولكل من حوله، وولتر موندیل عندما فكر فى أن يختار امرأة لتكون نائبته فى سباق الرياسة كان عليه أن يختار بين يهودية فاقعة اللون هى ديانا فاين شتاين عمدة سان فرانسيسكو ونصف يهودية هى جيرالدين فيرارو عضوة مجلس الشيوخ، فإن أصلها يهودى وقد اختار أهون العزين وهى الثانية، ثم تبين له أنها مصيبة عليه بسبب مشاكلها المالية مع الضرائب هى وزوجها، ومن المعروف أنه لا يوجد يهودى أمريكى واحد لا يغش فى مسائل الضرائب، ولكن هذا الغش يعتبر مبدأ خلقيا يهوديا بالنسبة لكل يهودى فى الدنيا لأنه إحدى وسائله للانتقام من أهل الدنيا والشىء الجديد الذى اكتشفه اليهود هو أنه لا يوجد إسرائيلى لا يغش دولته الإسرائيلية فى الضرائب وكل يهود إسرائيل يدخرون أموالهم خارج إسرائيل..

□□□

ومن يوم قامت الدولة الإسرائيلية فى فلسطين ركب المنطقة كلها عفريت فهى تهدد كل جيرانها فعلا، ومسألة الحدود الآمنة مسألة مستحيلة، لأن اليهودى لن يشعر بالأمان ولو احتل الدنيا كلها، وبعد أن التهمت إسرائيل ما سمى بأراضيها تسرعت فى التهام الضفة الغربية ثم لبنان، ولم تخلص

مصر من المصيبة حتى بعد تحرير سيناء، فثلاثة أرباع القوة العسكرية الإسرائيلية تقف على أهبة الاستعداد على حدودنا مع أن بيننا معاهدة سلام، لأن السلام مع الآخرين والأمن والاستقرار مفهومات غير إسرائيلية ومناحم بيجين بعد أن أحيل إلى المعاش، ولم تعد لديه وسيلة لإتعاس الآخرين أصيب بحالة اكتئاب نفسى يعانى منها الآن.

وموشى ديان.. وهو أوسع الإسرائيليين ثقافة، ففى حياته يحارب مصر والعرب وبعد أن مرض وتوقف عن العمل، لم يكن يجد الراحة الحقيقية إلا فى الإسكندرية، وفى ذات مرة سألوه: لماذا لا تصطاف فى حيفا أو يافا فقال: بين اليهود؟ أعوذ بالله! وهل هذه تكون راحة؟ وهم غاضبون على المصريين لأنهم لا يذهبون للسياحة فى إسرائيل دون أن يسألوا أنفسهم: ولماذا يختار إنسان عاقل فى الدنيا إسرائيل ليقضى فيها إجازة، إذا كان الإسرائيليون أنفسهم يتمنون لو كانت حياتهم كلها إجازة خارج إسرائيل، ورغم كل شىء تستطيع أن تقول إن كل إسرائيلى يشعر أنه يائس ولو كان عضوًا فى الكنيست، وإسحاق شامير يائس، وشيمون بيريز يأس، واتعس الجميع هم شباب إسرائيل الذين يتساءلون الآن لماذا يعيشون فى ضنك إسرائيل وهى معسكر اعتقال مع أنهم يستطيعون الهجرة إلى الولايات المتحدة أو ساوياولو أو بيونس إيريس وينعمون بالحرية والرخاء هناك؟.

والذى يعنينا هنا أننا تحت العرب - بسبب إسرائيل - نعيش إما داخل برميل البارود وإما إلى جواره، وهاتان صورتان متشابهتان للعيش فى الجحيم، أما الجحيم نفسه فنجده فى قلب كل إسرائيلى وإخواننا العرب يقولون إن صلح مصر مع إسرائيل أطلق يد إسرائيل، والسؤال الآن: أى يد؟ إن إسرائيل مثل أم أربعة وأربعين كلها أيد تلسع وتحرق، ومازالت القوات الإسرائيلية معسكرة على حدودنا وأمريكا لا تريد من إسرائيل إلا أن تجعل المنطقة كلها فى فوضى واضطراب وحاجة إلى

السلاح، لأن الأسلحة أكبر وسيلة لاستنزاف أموال البلاد التعيسة، فكل سلعة فى الدنيا مهما بلغت كالطائرة الضخمة مثلا لها ثمن معروف، أما الذى ليس له ثمن معروف فهو السلاح، والبندقية العادية سعرها مثلا مائة دولار، ولكنها تباع للمحتاج إليها بألف، وثمنها فى السوق السوداء من ألفين فصاعدا، وفرنسا التى تقول: إنها بلد سلام تبيع للعراق طائرات اكسو زيد بسعر مائة مليون دولار للواحدة مع أن آخر ما توصلت إليه ترسانة الولايات المتحدة من الطائرات العسكرية المتطورة يبلغ ثمنها ٥٠ مليون دولار، وقد عرفنا ذلك بالصدفة عندما سقطت واحدة من هذه الطائرات أثناء التجربة، والولايات المتحدة تبيع إلى يومنا هذا - بطرق ملتوية شتى - أسلحة لإيران بما لا يقل عن ثلاثة بلايين دولار فى السنة، وإيطاليا باعت ألغاما لليبيا لتلغيم مياه البحر الأحمر، وثمانى عشرة سفينة أصيبت، وكل دول أوروبا وأمريكا نفسها أرسلت بعثات لا لكشف معضلة الألغام بل لتغطية حقيقتها، ومن المؤكد أنهم عثروا على بعض الألغام وحملوها معهم لأن المهم ألا نعرف نحن الحقيقة أبدًا وماذا يحدث مثلاً لو اكتشفنا أن الألغام ليست من فعل ليبيا وحدها بل للحبشة ضلع فيها؟ هذا شبه مؤكد، والحبشة التى لا تجد طبق عدس لسكانها تشترى أطباق ألغام ثمن الواحد منها ٤٠٠ دولار وتلقيها فى مياه البحر الأحمر خدمة لأمريكا أو روسيا، لا أحد يدرى، ولكن المؤكد أننا نحن العرب ندفع ثمن هذه الألغام بالضبط كما تتحمل السعودية كل متاعب الأخطار التى تسببها لموسم الحج إيران مرة وليبيا مرة أخرى، ومن المؤكد أنه سيجىء يوم فتبين فيه أن الوسطاء فى بيع الأسلحة لإيران لتضرب العراق، وللعراق لتضرب لإيران، ولليبيا لكى تهدد أمن مصر والسودان ولسوريا لكى تكمل على ما بقى من لبنان، كل الوسطاء فى هذه العمليات عرب لبنانيون وسوريون او أى نوع من أنواع العرب والمسلمين، لأننا نحن العرب جنس واحد ولكننا ألف نوع وفصيلة، ونحن نعمل كل البلاوى وعلى رءوسنا تحط كل المصائب، والإسرائيلى غريب فى إسرائيل، والعربى أيضًا غريب فى

وطنه، ليبيا تقول كل يوم إن أحسن الطرق لتحقيق الوحدة العربية هى أن يمسك كل عربى بخناق جاره العربى ويخنقه ويقوم كل شعب عربى على حكومة ويقضى عليها، ويعلن كل بلد عربى الحرب على بلد عربى آخر، ونغرق كلنا فى بحر واحد واحد من الدماء فلا يبقى فى السفينة إلا الفاتح نوح القذافى.

□□□

وقد أبقيت حرب العراق وإيران إلى فقرة قصيرة أخيرة مع أنها مصيبتنا الكبرى خوفا من أن يعود إخواننا العراقيون إلى الغضب، وهو شىء لا أريده، ولكنى أحب أن أقول إن محاصرة موانى تصدير النفط الإيرانية لن يؤدى قط إلى نهاية الحرب، لأنها أيها السادة ليست حربا بين إيران والعراق، ولكنها حرب بين روسيا وأمريكا، ونفس الحرب دائرة بنفس الضراوة فى أمريكا الوسطى، وما دمتم ترفضون فكرة وساطة مصر المحايدة وإيران ترفض وساطة العرب والمسلمين جميعا فقولوا لى كيف ستنتهى هذه الحرب، إن آخر تقارير مركز الدراسات الاستراتيجية فى لندن تقول إن حرب الخليج ستستمر أربع سنوات أخرى على الأقل بنفس الضراوة، ومدخرات إيران أكبر بكثير مما تتصور، والبترول أسعاره فى هبوط ولم يعد سلاحا بسبب اختلاف العرب، ومن الممكن أن يعود سلاحا إذا اتحد العرب، ولكن كيف يتحد العرب؟ تلك هى المسألة، وهى أيضا مسألة نكون أو لا نكون، وقد تعبت من الكلام فى هذا الموضوع، موضوع الهموم العربية التى حيرت الألباب وأعجزت نفس الأطباء ولم يبق لى إلا أن أختم هذه السطور لنفس بيتى الشعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادى
ونار لو نفخت بها أضاءت
ولكن أنت تنفخ فى رماد